الفصل التاسع

التسوية

في الربيع التالي، وفي وقت متأخر من مساء يوم 17 مارس/آذار 1999م، بث برنامج نشرات الأخبار المسائية على التلفاز الحكومي تقريرًا يسبقه تحذير بأنه قد لا يكون مناسبًا لأي شخص دون سن الثامنة عشرة. ظهرت مقتطفات من شريط مصور بالأبيض والأسود، وبدا واضحًا أنها ملتقطة من كاميرا مراقبة مثبتة سرًّا في موقع فوق سرير مزدوج، تبيَّن فيما بعد أنه داخل شقة في موسكو، مملوكة لمصرفي على درجة من الشهرة. شابتان، وصفتا بأنهما من بنات الليل، تدخلان وتخرجان من إطار الصورة، وفي مراحل مختلفة من خلع ملابسهن، ثم سرعان ما يبدو هناك رجل، كما يذكر المذيع، «يشبه كثيرًا المدعي العام» يوري سكوراتوف. وكان صراع الكرملين مع المدعي العام قد اشتد، وكان الهجوم المضاد الذي اتخذ للتو متوهجًا.

تلقت جميع الشبكات الرئيسة نسخًا من كاسيت الفيديو في وقت سابق من الأسبوع، ومن مصدر مجهول، واستغرق بث الشريط بمجمله خمسين دقيقة، ولم يختر بثه سوى قناة التلفاز الحكومية (RTR)، في البداية على الأقل[1]، وقد اعترض بعض مراسلي الشبكة على عرضه، إلا أن مديرها العام، ميخائيل شفيدكوي، الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للثقافة في روسيا، هو من اتخذ القرار[2]، وظل المصدر ومصداقية التسجيل غامضين، وكانت نوعية التصوير رديئة حتى إنه كان يصعب لأحد أن يقول إن هذا سكوراتوف الذي يقفز مبتهجًا مع امرأتين، وحين سألته إحداهما عن اسمه، رفض إعطاء اسمه، وأجابها: «يورا»، تصغير اسم يوري. كان

لشريط الفيديو كل خصائص (فخاخ العسل) التي استخدمتها الـ(كي جي بي) لإحراج رجال الأعمال أو السياسيين بقصد ابتزازهم، وانتشرت نكتة على إثر ذلك وعُمِّمت بأن مصدر الفيديو كان رجلًا يشبه كثيرًا مدير جهاز الأمن الفيدرالي؛ فلاديمير بوتين.

وفقًا ليلتسين، كان رئيس إدارته، نيكولاي بورديوزا، أول من حصل على شريط الفيديو، وقد صُدم به، والتقى بورديوزا سكوراتوف سرًّا في الكرملين في الأول من فبراير/شباط، قبل وقت طويل من نشر الفضيحة[3]، وقد كتب سكوراتوف على الفور خطاب الاستقالة، مشيرًا إلى تدهور حالته الصحية، وأُخضع للفحص في المستشفى في اليوم التالي، أما يلتسين فقد خرج من المستشفى الخاص، الذي عولج فيه هذه المرة من نزيف في المعدة، وفحص بورديوزا أيضًا نفسه في المستشفى في وقت لاحق من هذا الشهر، كما لو أن طاعونًا اجتاح النخبة السياسية في البلاد.

يوم 2 من فبراير/شباط عاد يلتسين إلى مكتبه في الكرملين لأول مرة منذ نهاية عام 1998م، وبقي فقط ساعة ونصفًا، لكن بقاءه كان كافيًا لطرد أربعة مساعدين وقبول استقالة سكوراتوف، وقد ورد في القرار أن سبب استقالة سكوراتوف حالته الصحية، وقد أصبح (المرض) المفاجئ للقادة السوفييت منذ وقت طويل كناية عن المؤامرات العميقة، ولا أحد يصدقه.

انتشرت شائعات عن فصل آخرين من العمل، ومن بينهم بوتين؛ ولا أحد يدري ما الذي يتكشف من خلف الأستار. مجلس شيوخ البرلمان، والمجلس الاتحادي الفيدرالي، الذي يسيطر عليه محافظو البلاد هو السلطة الوحيدة المخوَّلة بقبول استقالة سكوراتوف؛ وهو يرقب الفراغ في السلطة الذي سيعقب نهاية ولاية يلتسين الوشيكة، فرفض المجلس النظر في مصير سكوراتوف ما دام أنه في المستشفى وغير قادر على توضيح سبب الاستقالة. ادعى يلتسين في ذلك الوقت أنه لا بورديوزا ولا مساعدوه الآخرون أخبروه عن شريط الفيديو قبل أن يصبح قضية عامة، وقال إنه سعيد لاستقالة سكوراتوف من منصبه، ولسبب واضح.

شغل سكوراتوف منصب المدعي العام أكثر من ثلاث سنوات، ولم يتميَّز إلا بإخفاقه الذريع في حل الجرائم الأكثر شهرة في البلاد، ومن بينها مقتل غالينا ستاروفويتوفا قبل شهرين، وقد كتب يلتسين: «الأعذار الروتينية التي لا نهاية لها لسكوراتوف بدأت تزعجني»[4]، وسكوراتوف، مع ذلك، لم يكن خاملًا بالمطلق؛ فقد أبدى حماسًا في التحقيق بقضايا الرئيس أكثر مما أبداه في التحقيق بجرائم بشعة أخرى في البلاد، وفي الأشهر التي سبقت إقالته، اكتسبت بعض تحقيقاته فجأة زخمًا جديدًا. وفي فبراير/شباط في اليوم الذي جوبه بورديوزا بشريط الفيديو، سلَّم سكوراتوف تقريره إلى مجلس الدوما متهمًا مصرف روسيا المركزي بتحويل سري لما قيمته 50 مليار دولار من احتياطيات العملة الأجنبية من خلال شركة غامضة تسمى شركة الإدارة المالية المحدودة، التي كانت قد سجلت على ما يبدو في عام 1990م في جزر الشانيل من قبل الـ(كي جي بي) والحزب الشيوعي، واستخدمت حسابًا خارجيًّا، على الرغم من أن كثيرًا من التفاصيل لا تزال غير واضحة، ومن ضمنها المستفيدون من التحويلات غير القانونية[5].

في اليوم التالي دهم محققون من مكتب سكوراتوف، يرافقهم شرطة خاصة ملثمون، مقرات شركة سيبنفت النفطية، وهي جزء من إمبراطورية بوريس بيريزوفسكي، وبعد يوم من المداهمة ظهروا في شركة بيريزوفسكي الأمنية (أتول)، حيث وجد المحققون معدات تنصت إلكتروني، وأشرطة مصنفة تحت اسم (**الحاشية**)، في إشارة إلى دائرة يلتسين الداخلية من المستشارين، و(تانيا)، ابنة يلتسين الصغرى، ومستشارته السياسية تاتيانا دياتشينكو.

على الرغم من استقالته، أو ربما بسبب ذلك، حوَّل السخط على الفساد والملاحقات القضائية لسكوراتوف انتباه الجمهور فجأة إلى ذاك الذي يجري في قلب السلطة في الكرملين. بعد الانتهاكات المتوحشة للخصخصة في مطلع التسعينيات بدأت تتصاعد الدعوات إلى العدالة بصوت أعلى، وتستشعر الرياح السياسية لرئيس الوزراء الجديد، يفجيني بريماكوف، الذي أعلن في اجتماع لمجلس الوزراء يوم 28 من يناير/كانون الثاني أن

الحكومة ستنظر- وفق منظمة العفو الدولية (أمنسيتي)- في قضايا أربعة وتسعين ألفًا من السجناء المسالمين؛ لتحرير مساحة «لأولئك الذين هم على وشك الاعتقال؛ الناس الذين يرتكبون جرائم اقتصادية»[6]، وبدا هذا تحذيرًا من أنه حتى القلة حول الكرملين لم يعد بالإمكان أن يعتمدوا على الحصانة في أعقاب رئاسة يلتسين. وقد رد بيريزوفسكي، الذي يُكِنُّ كراهية شديدة لبريماكوف، بالمثل، بإعلان أن تهديدات بريماكوف بدت كأنها عودة إلى الرعب العظيم. ولم تتأخر الغارات طويلًا على شركاته بعد ذلك.

كانت تصريحات بريماكوف هي الاجتياح الخطابي لسياسي طموح إلى أن يصبح الرئيس المقبل لروسيا، وفي بضعة أشهر من رئاسته للوزراء كوَّن لنفسه دعمًا في البرلمان، وفاز على محافظ (عمدة) موسكو القوي، يوري لوجكوف، الذي كان في وقت ما صديقًا ليلتسين، وهو اليوم في انتظار زوال الرئيس. رأى يلتسين- أكثر من أي وقت مضى- أن المناورات السياسية، وتحقيقات سكوراتوف، تعدُّ تهديدًا وجوديًّا لسلطته، بل وله شخصيًّا ولرفاهيته، فتذكر مؤامرة الحزب الشيوعي الداخلية التي أطاحت بنيكيتا خروتشوف في عام 1964م، واليوم بدا واثقًا أن بريماكوف ولوجكوف يدسون الدسائس لدى المدعي العام للإطاحة به، وكان عليه أن يفعل شيئًا لوقف ذلك[7].

في اليوم الذي تبنى فيه المجلس الاتحادي مسألة استقالته، في 17 مارس/آذار، ظهر سكوراتوف بصحة جيدة، وطلب أن يحتفظ بوظيفته «إذا جددتم ثقتكم ودعمكم لي»[8]، وأوضح للنواب أنه استقال من منصبه تحت الإكراه، وأنحى باللائمة على اثنين من رؤساء الوزراء السابقين و(القلة المعروفة)، ولم يذكر بيريزوفسكي، لكن ناقش غارات المحققين التي شُنت على شركات بيريزوفسكي، «هؤلاء الناس سبق أن علموا باستقالتي منذ مدة لا تقل عن أسبوعين»، كما قال، وأشار على نحو غير مباشر إلى الناس الذين جمعوا المعلومات عن حياته الخاصة، لكنه اليوم يبدو مصممًا على التمسك بمنصبه.

أرسل الكرملين الشريط المصور عن سكوراتوف والنساء إلى أعضاء مجلس الاتحاد الذين كانوا يستعدون للتصويت على مصير سكوراتوف، وكان لهذا التكتيك ردات فعل ارتدادية سيئة: لقد صدم أعضاء المجلس وروَّعهم، لا من الشريط المصور نفسه، ولكن من طريقة استخدام مثل هذه الخدعة الخام للتأثير وحصد نتائج مداولاته. صوتوا 142– 6 على عدم قبول استقالة سكوراتوف، وتركه في مكتبه ووظيفته، وبعد ساعات قليلة من تصويت المجلس بُث الشريط، وكانت الضجة العامة التي تلت ذلك هائلة، حتى إنه من المستحيل المقارنة بين أي السلوكين أكثر مساومة على الصعيد الأخلاقي: السلوك على السرير أم قرار نشره على الجمهور.

في صباح اليوم التالي استدعى يلتسين سكوراتوف إلى غرفة المستشفى حيث كان يشرف على الشفاء مرة أخرى من قرحة نازفة، وقد كان تلقى في ذلك الوقت أيضًا نسخة منه، وكذلك الصور الثابتة، وعندما وصل سكوراتوف وجد بريماكوف وبوتين ينتظران في الغرفة. لم يستغرب وجود بوتين؛ فقد زاره بوتين حين نقل إلى المستشفى، وأخبره أن (الحاشية) كانت راضية عن رحيله الهادئ في فبراير/شباط الماضي، وعرض عليه تعيينه سفيرًا في فنلندا، ورفض سكوراتوف (المنفى المشرِّف).

ثم سأله بوتين: إذن ماذا ترغب أن تكون؟

قال سكوراتوف: أريد الاستمرار في عملي[9].

بعد خروج سكوراتوف من المستشفى في فبراير/شباط، جرَّب بوتين تكتيكات جديدة لإقناعه بالاستقالة؛ فدعاه ذات مرة وأخبره أنه يتعاطف مع مأزقه؛ وقال مخاتلًا: إنهم (يقولون) إن هناك شريطًا مصورًا مماثلًا عن بوتين نفسه! وربما من الأفضل تجنب الفضيحة بالتنحي[10]. وزار سكوراتوف مرة أخرى في منزله الحكومي في أرخانجيلسكوي، وكانوا جيرانًا، وحالما دخلا في الأراضي المشجرة، عامله وكأنه مسؤول مهم أو مجند، بالتناوب بين الخداع والتهديد، فقال في البداية وباحترام: «يوري إيليتش، أنا دَهِش أنك

تمكنت من العمل ثلاث سنوات ونصفًا في هذه البالوعة»، وأخبره أنه لا يمكن أن يتصور البقاء في منصبه حتى نهاية ولاية يلتسين، ثم تحولت لهجة بوتين فجأة، فأخرج حزمة من الأوراق وقال إن هناك مخالفات في تجديد شقة سكوراتوف في موسكو، وإن سكوراتوف كان مستهدفًا بسبب تحقيقاته مع رئيس بوتين السابق بافل بورودين[11].

كان بوتين خلال كل ذلك- يعتقد سكوراتوف- مهذبًا جدًّا، ولكن الإشارة إلى بورودين أكدت في ذهنه أن تحقيقاته طالت المقربين من يلتسين و(الحاشية)، وأن عقود بورودين مع ميركاتا، وهي الشركة التي كانت قد أتمت تجديد الكرملين في عام 1994م، وشركتها الشقيقة مابيتكس، قد تأتي أيضًا في إطار تدقيق المحققين في الخارج، فهناك معاملات مشبوهة تشي بغسل الأموال.

في يناير/كانون الثاني، قبل أسابيع فقط من ظهور الشريط المصور، دهم محققون في سويسرا مكاتب مابيتكس في لوغانو، وصادروا سجلات تظهر أن الشركة لم تدفع فقط رشا لمسؤولين روس للفوز بمشاريع البناء، ولكن أيضًا سددت أرصدة بطاقات ائتمان مملوكة لبنات يلتسين، وقد شنت المدعية العامة السويسرية، كارلا ديل بونتي، حملة ملاحقة قضائية ضد غسل الأموال الربحية الجنائية في سويسرا، وأعلنت أن البلاد تهددها «الأموال الروسية القذرة»[12]، ونتيجة لذلك ظهرت الأدلة ضد شركة مابيتكس. وحتى مع تكشف فضيحة سكوراتوف في مارس/آذار، سافرت إلى موسكو لمتابعة التحقيق، عارضة مقايضة الأدلة السويسرية بالتعاون الروسي. وبعد يومين من الاجتماعات الخاصة ناقشت هي وسكوراتوف التحقيقات، ومن بينها تفاصيل حسابات مصرفية تعود لعدد من مسؤولي الكرملين، وبذلك فقد أصبح لسكوراتوف- بعد أن حاول الكرملين إجباره على الاستقالة- نفوذ ليرد الصاع صاعين، واثقًا من أن المجلس الاتحادي سيقف معه في الصراع على سلطة من الشفق السياسي ليلتسين.

عندما واجه يلتسين سكوراتوف في المستشفى في صباح اليوم التالي لأول تصويت للمجلس الاتحادي- في صباح اليوم التالي لبث شريط الفيديو- قال له وهو يمرر أصابعه على نسخة من الشريط المصور، ويتكئ على كرسيه ويتنفس بعمق: «أنت تعلم يا يوري إيليتش أنه لم يسبق لي أن خنت زوجتي...»، ثم وعد يلتسين بوقف عرضه على التلفاز إذا ما كتب سكوراتوف كتاب طلبه الاستقالة للمرة الثانية، وعرف سكوراتوف أن هذا (ابتزاز تمهيدي)، لكنه يعرف أيضًا أنه لا معنى لمناقشة صحته اليوم، واحتج سكوراتوف قائلًا إنه قد بدأ تحقيقًا في مابيتكس، وهو ما فسره يلتسين بأنه ضرب من ضروب الابتزاز بالمقابل[13]، فقال له يلتسين: «يوري إيليتش، نحن نتحدث عن شيء آخر اليوم، بعد ما حدث لك أنا لا أعتقد أنك يجب أن تظل في منصب النائب العام، وأنا لا أقف إلى جانبك، ولن أحاول إقناعك، فاكتب خطاب استقالتك، فأنا لم أعد راغبًا في العمل معك». ودفع يلتسين بورقة وقلم نحوه، فنظر سكوراتوف إلى بريماكوف، متوقعًا الدعم من رئيس الوزراء الذي تعهد بمحاربة الفساد بين النخبة في البلاد، ولكن رئيس الوزراء لم يحرك ساكنًا[14]، وبوتين لم يقل شيئًا، على الرغم من أن سكوراتوف لمس أنه يراقبه طولًا بعرض. من ثم وقع سكوراتوف الاستقالة، استقالته للمرة الثانية في أقل من سبعة أسابيع، على الرغم من أن يلتسين وافق على طلبه بأن يؤجل تاريخ كتاب الاستقالة حتى أبريل/نيسان، الموعد المقرر للاجتماع التالي للمجلس الاتحادي.

حين غادر سكوراتوف المستشفى وعاد إلى مكتبه، ظل يفكر في خطوته المقبلة، وهو يتصور أن معركته مع الكرملين لعبة شطرنج؛ كان موقفه ضعيفًا، لكنه تجنب خسارة اللعبة نهائيًّا[15]، واليوم لا بد له من هجوم مضاد، وفي أثناء قيادته السيارة اتصل بمراسل التلفاز وأعلن التحقيق مع شركة مابيتكس علنًا[16].

من بين الخلافات السياسية المحيطة برئاسة يلتسين والمثيرة للجدل، كان التحقيق الذي أطلقه سكوراتوف وسويسرا في ميركاتا ومابيتكس تهديدًا قويًّا للرئيس و(الأسرة). وقد اعترف يلتسين أن هذه الفضيحة لها (ساقان)، ويمكن أن تودي برئاسته إلى نهاية مبكرة.

بعد يوم من مواجهته مع سكوراتوف، خرج يلتسين من المستشفى وعاد إلى الكرملين، وأقال رئيس أركانه، نيكولاي بورديوزا، دون ذكر الأسباب للرأي العام، مع أن كثيرين افترضوا في وقت لاحق أن إقالته تعود إلى إخفاقه في إزالة سكوراتوف بهدوء. تلقى بورديوزا، المسؤول السابق في الجيش العرض بـ(منفى الشرفاء)، وهو العرض نفسه الذي كان بوتين قد قدمه لسكوراتوف ليصبح سفيرًا في الدنمارك، لكن استبدل به يلتسين ألكسندر فولوشين، وهو شريك تجاري سابق لبوريس بيريزوفسكي، وبعد عشرة أيام رُقي بوتين لأمين عام مجلس الأمن الروسي.

ثم تدخل بوتين وقتها بطريقة تعمق ثقة يلتسين به؛ ومع أن بوتين نفى أن تكون وكالته قد سجلت اللقاء الجنسي لسكوراتوف، فقد أوضح أن الـ FSB كانت على معرفة وثيقة بمصدرها. وفي 2 من أبريل/نيسان، أعلن أن الشريط المصور كان في الواقع حقيقيًّا، أولًا للمجلس الاتحادي (مخفوض العينين)، كما وصفه سكوراتوف، ومرة أخرى في تصريحات للصحفيين المنتظرين. وبقدر ما كان ذلك محرجًا، لم يكن كافيًا لإجبار سكوراتوف، ولكن وجد بوتين ثغرة قانونية مدهشة لعناد المجلس، وشرع يعلن أن هناك (أطرافًا) أخرى، كالأطراف الموجودة في الشريط المصور، قد دفع لهم المجرمون في محاولة للتأثير في تحقيقات سكوراتوف. إذا ثبت أنها صحيحة فستكون جريمة قاتلة، ولما كان على أي موظف مدني يخضع لتحقيق جنائي، التنحي حتى يصدر القرار بخصوص التهمة، فقد فعل إعلان بوتين ما لم يفعله أي شيء آخر حتى الآن. وفي منتصف الليل، دعا الكرملين نائب المدعي العام في موسكو، وقدم له دليلًا من الـ FSB، وأمره بفتح تحقيق، والآن لم يعد لدى سكوراتوف أي خيار سوى التنحي حتى تحل هذه القضية الجديدة ضده.

أعلن يلتسين وقتها أنه كف يد سكوراتوف عن العمل، وأزال المفرزة المكلفة بحمايته الشخصية، وقطع خطوط الهاتف عن مكتبه، وأمر بإغلاق مكتبه بالشمع الأحمر. وكتب يلتسين فيما بعد: «روسيا من دون المدعي العام كانت أهون الشرين»[17]. كانت مناورة بوتين فنيًّا قانونية، إذ افترض وجود بعض الأسس لتُهَم تتعلق بالرشوة، ولكنها كانت أيضًا لا ترحم،

وأعرب يلتسين عن امتنانه مرة أخرى. وبعد أسبوع أعلن أن بوتين سيبقى مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي، حتى مع ترؤسه لمجلس الأمن الروسي؛ فقد عبَّر عن ولائه بكفاءته التامة التي تركت أثرًا طيبًّا لدى الرئيس، الآخرون قد يعدون، لكن بوتين يحقق نتائج. وبعد سنتين ونصف من وجوده في موسكو، وقف بوتين الآن في مركز إدارة يلتسين، ولم يعد مجرد نائب، ولكنه واحد من أقوى المسؤولين في الكرملين.

بدأ بوتين يتدرج في الرتب عندما بدأ عهد يلتسين في طور الاحتضار، إذ إن فضيحة سكوراتوف التي تتكشف عززت الجهود التي يبذلها الشيوعيون لعزل يلتسين، وهي خطوة تجعل بريماكوف هو القائم بأعمال الرئيس حتى إجراء انتخابات جديدة. الرئيس المريض والخائف لم يعد يقدم كثيرًا من الجهد للسيطرة على الأحداث، وكان يكتفي برد الفعل في أوقات متقطعة.

يوم 5 مارس/آذار 1999م اختُطِف المبعوث الخاص لوزارة الداخلية إلى الشيشان، الجنرال جينادي شبيغن، عندما كان يستقل طائرة من العاصمة جروزني، فقد أصبحت عمليات الخطف صناعة ما بعد الحرب الرئيسة في الشيشان، إذ كان ثمة مئات من الأشخاص المحتجزين للحصول على فدية بين عامي 1996 و1999م، لكن خطف مبعوث رفيع المستوى عمل وقح لا يمكن للكرملين تجاهله. كانت محادثات السلام التي أنهت الحرب في عام 1996م قد منحت الشيشان قدرًا كبيرًا من السيادة، غير أن القتال الذي استمر ما يقرب العامين دمر المنطقة وترك الاقتصاد في حالة خراب؛ فقد قتلت الحرب ما يصل إلى مئة ألف شيشاني، وقرابة خمسة آلاف جندي روسي، وفقًا للسجلات الرسمية التي يشكك بعضهم في مصداقيتها. وبعد أن نجت من الهجوم الروسي المضاد بدأت الشيشان تنحدر إلى حالة من الفوضى والإجرام، وهو ما قوض جهود رئيس الإقليم المنتخب، أصلان مسخادوف، في استعادة النظام وكسب الاعتراف الدولي للانفصال عن روسيا، وسرعان ما انتشرت الفوضى على حدود الشيشان.

في 19 مارس/آذار، بعد يوم من استقالة سكوراتوف الثانية، انفجرت قنبلة ضخمة في سوقٍ جنوبي مدينة فلاديكافكاز، عاصمة أوسيتيا الشمالية، وهي جمهورية أخرى من الجمهوريات التي تمتد على طول القفقاز، وليست بعيدة عن جروزني، وأسفر الانفجار عن مقتل أكثر من ستين شخصًا، فأمر يلتسين بوتين ووزير الداخلية سيرجي ستيباشين، بالانتقال إلى فلاديكافكاز للإشراف على التحقيق. وبعد ذلك بيومين نجا مسخادوف بأعجوبة من محاولة اغتيال. كان مسخادوف ضابط المدفعية السابق من الحقبة السوفييتية، ومتهم بأنه قومي وانفصالي، لكن كان واحدًا من القادة القلائل في الشيشان الذين يمكن أن يتفاوض معهم الكرملين. كثير من التخطيط العام كان جاريًا للقاء مسخادوف ببريماكوف أو حتى يلتسين نفسه؛ من أجل انتقال الشيشان إلى الاستقلال المسموح به ضمن اتفاقات السلام لعام 1996م، وبعد تلك الحادثة أشار مسخادوف إلى أن (بعض القوى) في موسكو قد تآمرت لقتله ليكون ذلك ذريعة لإعلان حالة الطوارئ، وتجنب حق تقرير مصير الشيشان. فندد بوتين بغضب بالاتهام[18]. كانت اتفاقات السلام التي أوقفت الحرب الأولى إهانة لروسيا، واليوم لم تعد توفر كثيرًا من الأمل لتحديد الوضع النهائي للجمهورية من أجل الاستقلال، وبدأ رجال الأمن في الكرملين، ومن بينهم بوتين، بصياغة خطط لحرب جديدة بدلًا من ذلك.

الاضطرابات المتجددة في الشيشان تكشفت حين كانت روسيا تواجه حربًا يشنها العدو اللدود للاتحاد السوفييتي؛ حلف شمال الأطلسي، ضد الإخوة السلافية في صربيا. بعد تفكك يوغوسلافيا في التسعينيات، تحولت صربيا بغضبها إلى منطقة الحكم الذاتي للمسلمين التي كانت داخل حدودها، كوسوفا. وفي نهاية عام 1998م أطلق الرئيس الصربي، سلوفودان ميلوزفيتش، حملة لسحق الميليشيات الانفصالية في المنطقة، وخلال أشهر بدأ يتضح أكثر أن الحملة تطهير عرقي كالذي حدث في البوسنة قبل سنوات قليلة فقط، واستجابت أوروبا والولايات المتحدة بعدوانية؛ لأنها تشعر بالعار من ترددها إزاء ما يجري من قتل في الآونة الأخيرة.

احتمال التدخل العسكري للناتو لحماية كوسوفا أغضب روسيا؛ لعجز الزعماء الأمريكيين والأوروبيين عن إدراك أبعاده؛ فصربيا وروسيا تتقاسمان الأصول السلافية، والدين، والثقافة، ولكن ذهبت مخاوف روسيا إلى أعمق من ذلك؛ فالنزاع في صربيا ألهب الكبرياء الروسي الجريح من حالتها المتشرذمة منذ انهيار الاتحاد السوفييتي؛ فروسيا الجديدة تفتقد القدرة على التأثير في الأحداث العالمية، وصعب عليها هضم الأحداث التي تقودها أمريكا، حتى إن يلتسين وبخ الرئيس كلينتون، مصرًّا على أن هذا التدخل يمنعه القانون الدولي، إلا أن كلينتون تجاهله.

استاءت روسيا من حقيقة أن الولايات المتحدة، وحليفها المتمدد حلف شمال الأطلسي (الناتو) يتصرفون وكأنهم استطاعوا فرض إرادتهم على النظام العالمي الجديد دون أي حساب لمصالح روسيا، والأسوأ من ذلك أن الصراع في كوسوفا له نظائر مدهشة وتوازيات في الشيشان، ومن ثم فإنه حتى الروس الذين لا يتحلون بجنون العظمة يمكن أن يتصوروا أن تقوم حملة لحلف شمال الأطلسي بالنيابة عن حركة استقلال الشيشان[19].

بدأت الحرب الجوية لحلف الناتو في 24 مارس/آذار 1999م، واستمرت ثمانية وسبعين يومًا، وكل قنبلة أو صاروخ سقط على صربيا كان ينظر إليه على أنه هجوم على روسيا نفسها، فاحتدمت المشاعر الشعبية، مع احتجاجات عنيفة خارج السفارة الأمريكية، واستنكارات أشد ضراوة في مجلس الدوما. أججت الحرب المشاعر القومية التي كافح يلتسين بلا كلال لاحتوائها لبقائه السياسي، وأوفد رئيس وزرائه السابق، فيكتور تشيرنوميردين، ليكون وسيطًا مع الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي، وقد فعل ذلك بناء على مقترح بوتين الذي عدَّ ذلك «مساهمة صغيرة خاصة به» لحل مشكلة الحرب[20]، وبعد أسابيع من القصف المتواصل، وافق ميلوزفيتش أخيرًا على مطالب حلف شمال الأطلسي بسحب القوات الصربية من كوسوفا لإفساح الطريق لنشر قوة دولية لحفظ السلام، فطلبت روسيا أن تكون جزءًا من القوة، لكنها رفضت أن تكون بأي حال من الأحوال تحت قيادة جنرالات حلف الناتو. وشارك بوتين، الذي عُيِّن قبل وقت قريب رئيسًا لمجلس الأمن الروسي، في المفاوضات لحل مأزق بعثة حفظ

السلام. «أدهشتني قدرته على ضبط النفس، والثقة بالنفس بالطريقة الناعمة المهذبة، والتحدث بمنتهى الهدوء»، هذا ما كتبه ستروب تالبوت، نائب وزير الخارجية، عن اجتماعه مع بوتين في 11 من يونيو/حزيران، وهو اليوم الذي يسبق انتقال قوات حفظ السلام التابعة للناتو إلى كوسوفا من ألبانيا ومقدونيا، وأضاف: «كان جسديًّا أصغر من الرجال الآخرين، كان قصيرًا ونحيفًا ومتأنقًا، في حين كان الآخرون أطول منه وأضخم منه وأكثر بدانة»[21]. كان بوتين جاهزًا للقائه مع الأمريكيين، بالعودة إلى التفاصيل المتعلقة بالشعراء الذين درسهم تالبوت حين كان طالبًا أمثال فيودور تيوتشيف وفلاديمير مایاكوفسكي، فقد قرأ بعناية سيرة رجل المخابرات تالبوت.

وخلال الاجتماع، تلقى الأمريكيون مذكرة تقول إن روسيا تهدد بإرسال قواتها لحفظ السلام في كوسوفا دون التنسيق مع حلف شمال الأطلسي، ولكن بوتين أخبر بهدوء تالبوت أن شيئًا لم يتغير في الاتفاقات التي توصلوا إليها، ولن يحدث شيء (غير مناسب). على أي حال حدث شيء ما، وكان يعتقد تالبوت أن بوتين يعرف كل ما حدث[22]. ففي ذلك المساء تمركزت وحدة من جند المظلات الروسية المتمركزة في البوسنة، التي كانت علامة- وتبدو اليوم علامة ساذجة- على التعاون بين الاتحاد السوفييتي والناتو، حُمِّلت وخرجت من قاعدتها باتجاه المطار في عاصمة كوسوفا، بريشتينا. وحين وصلت القوات البريطانية إلى المطار صبيحة يوم 12 من يونيو/حزيران بغزارة، كان هناك ما يقرب من مئتين من الروس بعرباتهم المدرعة، وما إن حط هناك الجنرال مايكل جاكسون، القائد البريطاني المعين حديثًا لجهود حفظ السلام، واستعد لإعلان انطلاق ناجح للبعثة، حتى توغلت إحدى العربات الروسية خلال المؤتمر الصحفي المرتجل على الطريق الإسفلتية، ووقف قائد الفريق الروسي في منتصف الطريق خارجًا من برج العربة، بابتسامة مصطنعة واضحة على وجهه[23]، فناشد القائد الأعلى للناتو، الجنرال ويسلي كلارك، جاكسون لمنع الانتشار الروسي، لكن جاكسون رفض، وقال لكلارك: «سيدي، لن أبدأ حربًا عالمية ثالثة من أجلك»[24].

في روسيا، كان رد الفعل على نشر القوات فائزًا، لكن التدخل المرتجل في المطار أظهر حالة من الفوضى في الأوامر العسكرية والمدنية في البلاد. بوتين الذي تحدث يوم أمس بأنه لن يحدث شيء، تصرف كأن شيئًا لم يحدث حين لقائه بتالبوت مرة أخرى في اليوم التالي، وادعى أن لا علم له بالانتشار الاستباقي للجيش في بريشتينا، لكن أوضح «بهدوء وتُؤَدة، وبصوت يكاد يكون غير مسموع في بعض الأحيان، أن صراع ما قبل الانتخابات» في البلاد حرَّض الصقور والحمائم على التقاتل بينهما. وأشار بوتين إلى أن هذا خطأ كبير، ولكن على الرغم من ذلك فقد عززت العملية الرئيس في بلده، وقال بوتين لتالبوت: «لا أحد في روسيا يمكن أن يتصور أن الرئيس يلتسين دمية في يد حلف شمال الأطلسي»[25].

أكدت تصريحات بوتين حول «صراع ما قبل الانتخابات» إلى أي مدى أصبحت نهاية رئاسة يلتسين الهاجس الأسمى للنخبة السياسية في روسيا. البلاد، بعد قرون من الحكم القيصري ثم الشيوعية، لم تنقل ديموقراطيًّا السلطة السياسية من قائد إلى آخر. شخصنة السلطة لها جذور عميقة جدًّا في الثقافة الروسية لدرجة تبدو فيها غير معقولة، وحتى في هذه المرحلة المتأخرة، عرض يلتسين فكرة الترشح لإعادة انتخابه، على الرغم من أنه انتخب مرتين، وكان الدستور الجديد للبلاد يقصر مدة الرئاسة في دورتين متتاليتين فقط، لكن لم يدخل حيز التنفيذ إلا في عام 1993م، وكان يمكن أن يساجل من الناحية القانونية أن إعادة انتخابه عام 1996م بدأ بها ولايته الأولى، ويمكنه أن يترشح مرة أخرى في عام 2000م، ولكن كل ذلك كان محض خيال؛ فقد بلغ الثامنة والستين من العمر، وهو متعب ومشلول سياسيًّا. لم يستقل عن طيب خاطر ويغادر الكرملين، لكن عرف أن هذا لا مفر منه، وفكر مليًّا كيف له أن يضمن انتقالًا يحفظ الانتقال السياسي من الحكم السوفييتي، ويحمي نفسه من عمليات التطهير الانتقامية التي أعقبت إزالة كل زعيم منذ آل رومانوف، فالتقاعد لم يكن حميدًا لقادة البلاد.

في خضم النزاع في كوسوفا، تحرك يلتسين بحسم لوضع حجر الأساس لحياته بعد الرئاسة؛ ففي مايو/أيار أقال رئيس وزرائه الرابع، وأثبت بريماكوف قوة استقرار خلال

ثمانية أشهر من توليه رئاسة الوزراء، مخففًا الذعر من التقصير الذي حدث في أغسطس/آب عام 1998م، والتحرك بإجراءات العزل البرلماني. اعترف يلتسين بأن بريماكوف كان رجلًا صادقًا وكريمًا ووفيًّا، وكان أكبر إخفاق له في رئاسة الوزراء أنه أصبح أكثر شعبية من يلتسين. واليوم قبل عام من الانتخابات الرئاسية لعام 2000م، كان بريماكوف وعمدة موسكو، يوري لوجكوف، الجبهة المفترضة للسيطرة على البلاد، وكان ذلك شيئًا لا يمكن أن يقبل به يلتسين، وأعرب عن قلقه من تصريحات بريماكوف عن إطلاق أسر بعض السجناء لتوفير مساحة للمتهمين (بالجرائم الاقتصادية)، وحقيقة أن مجلس الدوما قد أكمل خمس مواد اتهام وعلَّق النقاش حتى شهر مايو/أيار، فإذا مرِّرت أي مادة منها، فسيفقد يلتسين سلطته على حل البرلمان، إذا ما مضت قدمًا إجراءات العزل المقبلة؛ حتى إن نجح في تأخير المساءلة أو دحر عملية العزل، فسيفقد النفوذ الذي سمح له بدفع كيريينكو لمنصب رئيس الوزراء في العام الماضي.

قد يبقى بريماكوف رئيسًا للوزراء، ويستمر في جمع حلفائه السياسيين، وقد ظن يلتسين- في بحثه عن وريث- أن بريماكوف ليس مؤهلًا مزاجيًّا أن يكون رئيسًا، وروسيا بحاجة إلى «شخص ذي منظومة ذهنية مختلفة تمامًا، من جيل آخر، وعقلية جديدة»، ويعتقد أن بريماكوف «كان لديه كثير من اللون الأحمر في لوحته السياسية»[26].

كان الدافع السياسي من إجراءات العزل هو الضغط على الشيوعيين وحلفائهم في ما يمكن وصفه بأنه آخر معركة سياسية كبيرة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، فجرائم يلتسين، وفقًا للمواد، بدأت مع الاتفاق الذي فُكِّك الاتحاد السوفييتي بموجبه في عام 1991م، وتشمل كذلك المواجهة العنيفة مع البرلمان عام 1993م، والحرب في الشيشان، وتآكل الجيش، و(الإبادة الجماعية للشعب الروسي) الناجمة عن الأزمات الاقتصادية في التسعينيات، وما دام أنها مسائل تتعلق بالقانون الدستوري فقد ظلت مشكوكًا فيها، لكنها لقيت صدى عميقًا لدى جمهور محبط، لم تجلب له نهاية الاتحاد السوفييتي الخير فضلًا عن المعاناة والعار.

أصبح عزل يلتسين استفتاء على انتقال روسيا إلى الديموقراطية، وكانت كل مادة من مواد العزل تلقى دعمًا من أغلبية النواب وصنَّاع القانون.

في 12 من مايو/أيار، وقبل يوم من بدء النقاش حول عزله، أقال يلتسين بريماكوف، ورشح سيرجي ستيباشين، وهو قائد مخلص وحيادي، كان قائدًا للشرطة، وعمل في وزارات عديدة في ظل يلتسين منذ عام 1990م، وكان آخرها وزيرًا للداخلية، وكان قد عُيِّن نائبًا لرئيس الوزراء قبل أسبوعين فقط، وكانت هذه الوظيفة شرطًا أساسيًّا لأي شخص يعيَّن رئيسًا للوزراء بالنيابة، وفي أثناء اجتماع الحكومة تصرف يلتسين تصرفًا محرجًا حين طلب من ستيباشين أن يحرِّك كرسيَّه ليقترب منه لـ(إثارة مشاعر الترقب)، على حد تعبيره[27]. ينظر يلتسين إلى إثارة المشاعر هذه على أنها تكتيكات في لعبة، وفي الحقيقة هي كل ما تبقى لديه من سلطة للتأثير في السياسة. كتب يلتسين: «نقلات حادة غير متوقعة، وخطوة عدوانية دائمًا ترمي بخصمك فتفقده توازنه وسلاحه، لا سيما إذا لم يستطع التنبؤ بها، وتبدو غير منطقية على الإطلاق»[28]، وكان يأمل أن تعرقل عملية إعادة التنظيم هذه الأخيرة بطريقة ما طرح التصويت على العزل، ولكنها على ما يبدو غير منطقية على الإطلاق.

استمرت مناقشة العزل القانوني يومين، في حين حاول مساعدو يلتسين بصورة محمومة أن يعدوا ويشتروا الأصوات، وعندما عقدت جلسة التصويت، تغيب 94 نائبًا من أصل 450، وأصبح الوصول إلى 300 صوت أكثر صعوبة، وهو العدد المطلوب لتبني كل مادة من مواد العزل، ومع ذلك صوت 283 من الحاضرين لعزل يلتسين؛ لحربه في الشيشان، التي عارضها الليبراليون بالحماس نفسه الذي أبداه المحافظون المعارضون ليلتسين، وصوت 263 نائبًا للمادة المتعلقة بأحداث أكتوبر/تشرين الأول 1993م، ومواد أخرى أُخِّرت، لكنها لقيت تصويت الأغلبية الساحقة من الحاضرين، وبفارق ضئيل أخفق عزله.

في اليوم الذي عُيّن فيه ستيباشين، التقى بوتين بيلتسين في الكرملين وعرض عليه خطة لزيادة سلطة FSB في شمالي القفقاز، وهي ترمي إلى تحسين «التعاون والوسائل المتوافرة

لدى أجهزة السلطة الاتحادية»، وباختصار، الاستعداد لحرب في أي منطقة تتجه نحو الخروج عن السيطرة، ليس فقط في الشيشان، حيث ليس لموسكو أي سلطة فاعلة، وإنما أيضًا في الجمهوريات المجاورة مثل شركيسيا، حيث هددت الانتخابات المحلية في مايو/ أيار بإثارة حمام دم بين جماعات عرقية متنافسة. ولم يكن لدى بوتين الخبرة في التعامل مع منطقة القفقاز قبل أن ينتقل إلى موسكو ويتعامل مع مشكلات المنطقة بصفته مفتشًا لمديرية التحكم الرئيسة ثم مديرًا لجهاز الأمن الفيدرالي.

منذ فتوحات كاترين العظمى، كانت الأراضي ذات الأغلبية المسلمة، التي تمتد من البحر الأسود إلى بحر قزوين، موضوعات مقلقة للروس، وفي وقت لاحق للاتحاد السوفييتي. وقد طرد ستالين شعوب القفقاز بأسرها إلى سيبيريا خلال الحرب الوطنية العظمى؛ خوفًا من أن يصبحوا حاضنة للغزاة النازيين، وأطلق انهيار الاتحاد السوفييتي العنان للمظالم القديمة، التي بلغت ذروتها في إعلان الشيشان الاستقلال، والحرب الكارثية بين عامي 1994– 1996م، وهذا أدى إلى تقطيع أوصال روسيا نفسها، من وجهة نظر بوتين، بمساعدة وتحريض أجنبي مشين، وكان يعني– على ما يبدو– المنتصرين في الحرب الباردة، وعلى رأسهم الولايات المتحدة[29].

كارثة كوسوفا، وقرب المواجهة في المطار، دفعت يلتسين إلى أن يطلب من مجلس الأمن الروسي أن يجتمع أسبوعيًّا لينسق أفضل لإستراتيجية الأمن القومي، وقد زادت هذه الاجتماعات من تأييد الجمهور لبوتين، الذي بدأ يوافق على مقابلات منتظمة في الصحف والقنوات التلفازية، مجيبًا عن قضايا الساعة؛ بدءًا من العقيدة النووية الجديدة، والشكاوى الأمريكية من التجسس الروسي، إلى إعادة توحيد روسيا المقترح مع روسيا البيضاء، وصولًا إلى الحملة السياسية المقبلة.

استمرار العجز لدى يلتسين غذى الشائعات حول الاضطرابات، وعن وقوع انقلاب من جانب المتشددين، وفي مقابلة مع كومسومولسكايا برافدا، حرف بوتين السؤال ومن دون

سخرية، حول إمكانية أن تقوم الأجهزة الأمنية بانقلاب: «لماذا علينا الانقلاب إذا كنا نحن في السلطة كما هي عليه اليوم؟»[30]، تعليقه هذا بث قشعريرة في الليبراليون في البلاد والمعارضين ليلتسين، الذين لم يأخذوا التهديد على محمل الجد.

بحلول نهاية شهر يوليو/تموز قطع يلتسين إجازة قصيرة له وعاد إلى الكرملين، وشاكيًا من أن موجة الحر جعلت عطلته مستحيلة، في حين كان ثمة مسألة أكثر إلحاحًا لديه الآن، ولا يعلم بها سواه؛ السبب المفاجئ أن التحالفات الانتخابية كشفت قبل يوم واحد تحالفًا بين رئيس وزرائه المطرود يفجيني بريماكوف، وعمدة موسكو لوجكوف. ولوجكوف لم يعد قريبًا من يلتسين، فقد أطلق العنان لهجماته الشرسة على إدارة الرئيس وعلاقاته مع القلة، ووسائل الإعلام، ومن بينها الصحف ومحطة التلفاز التي تمولها حكومة لوجكوف، كانت تنشر التقرير تلو الآخر عن (حاشية) يلتسين، والفساد من حولها.

ادعى يلتسين أن أكثر القصص افتراء اشترتها الصحف التي استخدمتها الـ(كي جي بي) في زمن الاتحاد السوفييتي، أو سربت إليها (على الرغم من أن حليفه بوتين هو خليفة هذه الوكالة). قناة NTV، التي كانت تدعم يلتسين ضد الخطر الشيوعي، وقفت اليوم ضده منتقمة؛ بعد أن حاول رئيس الموظفين عنده، ألكسندر فولوشين، وقف القروض الحكومية لمالكها ميديا موست، الشركة القابضة لفلاديمير جوسينسكي، أحد القلة الذي موَّل جهود إعادة انتخاب يلتسين عام 1996م.

أقنع يلتسين نفسه أن قوة بريماكوف-لوجكوف الماحقة كانت مؤامرة ليس الهدف منها الفوز في الانتخابات البرلمانية وحسب، وإنما إلغاء الرئاسة نفسها. وفي لقاءت عديدة خلال الصيف، ناشد ستيباشين أن يفعل أي شيء ليوقف إعلان العمدة تلو العمدة دعم حزب لوجكوف، الذي سماه فاذرلاند (الوطن)، الذي يتحالف اليوم مع كتلة بريماكوف (عموم روسيا). ثم جلس يلتسين مفكرًا وقد زادت العزلة حوله، ولم يبق معه سوى حاشيته (عائلته) التي أصبحت قلقة أكثر من أي وقت مضى. وكتب المؤرخ الروسي، روي ميدفيديف: «كان

ببساطة غير قادر على فهم ما يجري في روسيا، ولم يفكر كثيرًا في تمسكه بالسلطة، وإنما بضمان سلامته الشخصية»[31]، فبعد ثماني سنوات من مقاومته البطولية للانقلاب، فقَدَ يلتسين إعجاب الأمة به التي كانت تفر نحو الحرية بعد عقود من الأيديولوجية السوفييتية، ولم تفعل ذكرياته شيئًا لتخفي الشفقة التي وصلت إليها حالته، وشعر بأنه مهجور ومرتاب، وخائف بكل تأكيد، «أُعذبُ نفسي بالمخاوف؛ من الذي سيقف إلى جانبي؟ من الذي كان يدعمني حقًّا؟»[32].

ادعى يلتسين أنه قرر مسار عمله المقبل منذ أشهر سابقة، مع أن قيادته الارتجالية والمتميزة بردود الأفعال تجعل ادعاءه مشكوكًا فيه. حتى ولو فكر في وقت سابق، لا يمكن أن يعرف أحد ماذا قرر أن يفعل، ولا حتى أقرب مستشاريه، حتى يصبح الإعلان وشيكًا[33]. بدا متهورًا بكل تأكيد، وغير مخطط له. وفي 5 أغسطس/آب استدعى بوتين إلى بيته الريفي خارج موسكو لعقد اجتماع سري.

قال له يلتسين: «لقد اتخذت قرارًا، يا فلاديمير فلاديميروفتش، أود أن أعرض عليك منصب رئيس الوزراء»، في البداية لم يقل بوتين شيئًا، بل حدَّق باهتمام في يلتسين مفكرًا فيما يقول، وأوضح له يلتسين (الوضع العام)، والاضطراب الذي يختمر في القفقاز، والاقتصاد، والتضخم، والشيء الذي استحوذ عليه كثيرًا: حاجة الكرملين إلى أغلبية برلمانية في الانتخابات المقبلة التي تفصلنا عنها أربعة أشهر فقط.

بوتين- كما يعتقد- سيعمل حيث تعثر ستيباشين في القضية الوجودية التي تواجه الكرملين: مصير يلتسين في حال أصبح لوجكوف أو بريماكوف الرئيس المقبل. وقد أظهر بوتين في وقت سابق أنه سيتصرف، ولأن الزخم السياسي للوجكوف بُنِي في الربيع، أطلق بوتين تحقيقًا في الشركة التي تسيطر عليها زوجته يلينا باتورينا؛ إذ نجحت في الفوز بالعقود عقدًا بعد آخر حتى أصبحت المرأة الملياردیرة الأولى في روسيا، وهي واحدة من حكايات الانتقال من الفقر إلى الغنى، التي تسببت في ترك الملايين من الروس معدمين عند انهيار

الاتحاد السوفييتي، وتلك كانت من نتائج هذه الرأسمالية والديموقراطية الجديدة، ليس في الأمر ذرة من الحسد.

جأر لوجكوف محتجًّا عندما بدأ المحققون يفحصون شؤون باتورينا، فلم يعد يخشى تحدي يلتسين ومستشاره الأمني البارز، واحتج لوجكوف على FSB: «لسوء الحظ، العمل اليوم من أجل الكرملين وليس من أجل هذا البلد»[34].

كان يلتسين يطلب من بوتين أن يضطلع بدور أكثر أهمية؛ فقد طلب منه تأسيس حزب سياسي وقيادته، يمكن أن يهزم أولئك الذين قد تخلوا تمامًا عن الرئيس، وعندما تحدث بوتين أخيرًا طرح السؤال الآتي: كيف لك أن تنشئ أغلبية برلمانية وليس لك أنصار في البرلمان؟ فأجاب يلتسين: «لا أعرف»[35].

عاد بوتين مفكرًا مدة طويلة على غير العادة في صمت، وقد كان سلوكه الهادئ هو ما جذب يلتسين، لكن اليوم يبدو أنه متردد، وأخيرًا قال: «أنا لا أحب الحملات الانتخابية، أنا حقًّا لا أحبها، ولا أعرف كيف أديرها، أنا لا أحبها»، فأكد له يلتسين أنه لن يدير الحملة بنفسه؛ فتكتيكات الحملة كانت أقل مخاوفه؛ فالخبراء يتقنون مداخلها السياسية، وعليه اليوم أن يخطط لتحقيق ما عجز عنه يلتسين: الثقة والسلطة، والوضع العسكري الذي يعتقد أن البلد بحاجة ماسة إليه، والذي كان يشغل تفكير يلتسين كثيرًا في وضعه اليائس. فردَّ بوتين بـ(إيجاز عسكري): «سأعمل حيث تضعني»، هذه العبارة أدهشته، «وفي أعلى منصب؟».

يذكر يلتسين أنه للمرة الأولى يفهم بوتين النيات الكاملة لخطته؛ فلم يقدِّم له منصبًا يمكن أن يفوِّته كما فعل رؤساء الوزراء الثلاثة السابقون الذين لم يستمروا في مناصبهم سوى شهور فقط، فقد كان يشير إلى أنه سيكون وريثًا له في الرئاسة، وهو الإقرار الذي سعى إليه كبار مساعدي يلتسين واستعصى عليهم.

خيم الصمت على الرجلين، وشعر يلتسين بدقات عقارب الساعة في مكتبه، ووجد نفسه يتأمل عيني بوتين الزرقاوين، وقد خال «أن عينيه تتحدثان أكثر من كلماته»[36].

طلب منه أن يفكر في الأمر، ثم استدعي ستيباشين، الذي تلقى خبر إقالته من منصبه في رئاسة الوزراء على نحو سيئ، فتوسل إلى يلتسين لكي يعيد النظر في قراره، ومع أن يلتسين يفضل التنفيذ السريع لقراراته، فقد تعاطف على نحو غير معهود مع رئيس وزرائه، الذي ظل مواليًا له طوال رئاسته، فوافق يلتسين على التفكير في الأمر، وأعرب عن أسفه على الفور.

أناتولي تشوبايس، الذي كان أول من عمل مع بوتين في عام 1991م، حاول التحدث مع يلتسين بشأن قراره بتعيين بوتين رئيسًا للوزراء، فوجَّه نداء لرئيس الأركان، ألكسندر فولوشين، وابنة يلتسين. لم يكن تشوبايس راضيًا عن تعيين بوتين، فقد كان يعده رجل أمن لا يمتلك حسًّا سياسيًّا، وفي الواقع لا يمتلك أي خبرة سياسية. ترك تشوبايس إدارة يلتسين للمرة الأخيرة، وبعد ذلك تزعم احتكار الكهرباء الحكومية، ولكنه كان العقل المدبر لعودة يلتسين عام 1996م، وكانت مواهبه السياسية أكثر رسوخًا من يلتسين في هذه المرحلة. لم يكن هناك كثير من الفوائد المترتبة على استبدال بوتين بستيباشين؛ فلم يسبق لهما أن انتخبا لأي شيء، وكانا في السن نفسها، وكلاهما جاء من بطرسبورغ، وليس لديهما أي قاعدة سياسية مستقلة يمكن أن تدعم يلتسين. وحذره تشوبايس من أن أي تعديل آخر للحكومة سينظر إليه على أنه عمل من أعمال الجنون التي ستدعم الشيوعيين والتحالف الناشئ بين لوجكوف وبريماكوف.

حتى حين توسل تشوبايس في قضيته كانت الأحداث في القفقاز تصلِّب من عزيمة يلتسين، وفي 7 أغسطس/آب عبرت قوة كبيرة من المقاتلين الشيشان حدود الجمهورية، وطوقت ثلاث بلدات في جمهورية داغستان المجاورة. كان الجيش والشرطة الداخلية الروسية يستعدون منذ أشهر لعملية توغل، لكن القوات الشيشانية تصرفت مرة أخرى مع الإفلات من العقاب في الأراضي الحدودية الوعرة، وكان يقودها اثنان من المقاتلين: شامل باساييف، وهو قائد متمرد شرس، وشخصية غامضة تحمل الاسم الحركي **خطَّاب**. خطَّاب هذا من قدامى المحاربين في حركات التمرد الإسلامية التي يعود تاريخها إلى الحرب ضد

الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، وكان يمثل ممرًّا للتأثير الأجنبي الذي حذر منه بوتين. ستيباشين، الذي كان يتولى عملية اقتحام مماثلة في عام 1995م أدت إلى إقالته من منصبه في رئاسة جهاز الأمن الفيدرالي الروسي، غادر إلى داغستان في اليوم التالي برفقة رئيس هيئة الأركان في الجيش، الجنرال أناتولي كفاشنين، للإشراف على المعركة التي تحولت إلى معركة كاملة بين المقاتلين الشيشان والقوات الروسية. وصرح ستيباشين أن الأخطاء التي وقعت في حرب الشيشان لن تتكرر، وبدأت المدفعية والصواريخ الروسية تنهمر على القرى التي تحتلها القوات الشيشانية، وعندما عاد ستيباشين إلى موسكو في اليوم التالي، مضى يلتسين قدمًا في خطة ترشيح بوتين لمنصب رئيس الوزراء المقبل، وأقال ستيباشين من منصبه.

«قررت اليوم تسمية شخص يستطيع- من وجهة نظري- أن يعيد اللُّحمة للمجتمع السوفييتي»، هذا ما قاله يلتسين في حديث تلفازي يوم 9 أغسطس/آب. «وبالاعتماد على القوى السياسية الواسعة، سيضمن استمرار الإصلاحات في روسيا». لم يُسَمِّ يلتسين صراحة بوتين وريثًا له، لكنه ذكر الانتخابات المقرر إجراؤها في يونيو/حزيران 2000م، معربًا عن أمله أن يجد الناخبون الثقة في هذه القيادة الشابة، قيادة زعيم لم يختبر نسبيًّا في قيادته حتى اليوم، وأضاف: «أعتقد أن لديه ما يكفي من الوقت لإظهار جدارته».

«هذه قبلة الموت»، قال الشيوعي الإستراتيجي البارز ليونيد دبروخوتوف في ذلك الوقت مشيرًا إلى تأييد يلتسين؛ «نظرًا إلى الكره الشامل له في البلاد، فأي توصية من قبله لأي سياسي، حتى إن كانت نحو الأفضل، تشير إلى طريق القبر»[37]. وأعلن رئيس مجلس الدوما، جينادي سيليزنيوف، أيضًا أن يلتسين قد أنهى الحياة السياسية لبوتين، قائلًا إن النواب «يجب ألا يضيعوا أسابيع» في مناقشة الترشيح؛ لأنه «يمكن إقالته في الأشهر الثلاثة المقبلة»، وحتى بوتين كان يشكك في مستقبله زعيمًا سياسيًّا، وهو المستقبل الذي لم يفكر فيه هو شخصيًّا، فكل من عرفه يعرف ذلك جيدًا.

كان حقًّا صيفًا ثقيلًا على بوتين؛ فقد تدهورت صحة والده كثيرًا، وعلى الرغم من تزايد مسؤولياته في جهاز الأمن الفيدرالي FSB ومجلس الأمن الروسي، كان بوتين يسافر إلى بطرسبورغ على الأقل مرة واحدة في الأسبوع لرؤيته، وقد كانت والدته، ماريا، توفيت في العام قبل الماضي، وكلاهما عاشا حتى رأياه يترقى في الرتب في المدن والحكومات الاتحادية التي انبثقت من أنقاض الاتحاد السوفييتي. علاقة بوتين بوالده لم تكن في يوم ما علاقة حميمة، ولكن الفخر الصامت لقدامى المحاربين كان واضحًا؛ فقد أبدى تعجبه وهو على فراش الموت قائلًا: «ابني كالقيصر!»[38]. وتوفي في 2 أغسطس/آب. وبعد أن عاد بوتين من الجنازة في بطرسبورغ، عرض عليه يلتسين منصب رئيس الوزراء.

عرف بوتين- على الرغم مما سيدَّعيه لاحقًا يلتسين- أنه قد يتجاهله ويقيله كما أقال من قبله ستيباشين، وبريماكوف، وكيريينكو، ويحسب أنه سيمضي في المنصب شهرين أو ثلاثة أو ربما أربعة قبل أن يستبعده. هو اليوم في سن السادسة والأربعين، وشعر أنه تسلم (مهمة تاريخية)، وليس لديه إلا وقت قصير لإنجازها. العنف على الحدود الشيشانية مع داغستان بدا كأنه استمرار للتصدع الذي بدأ عام 1991م عندما انهار الاتحاد السوفييتي، وكانت الحرب في الشيشان إهانة، وكانت ردود فعل زعماء روسيا ليست على قدر المسؤولية تجاه ما كان تهديدًا وجوديًّا للأمة. شعر أن البلاد تتمزق كما تمزقت يوغوسلافيا وألمانيا الشرقية، يستذكر ذلك قائلًا: «إذا لم نضع حدًّا فوريًّا لهذا فستزول روسيا من الوجود»، لم تكن تحظى الحرب في الشيشان بشعبية قوية، وهو ما أدى إلى تدني سمعة يلتسين، وتسبب في محاولة التصويت على عزله لاتهامه بالتقصير، ومن ثم فقد عرف أن صراعًا جديدًا سيكون محفوفًا بالأخطار أيضًا. قال: «أدركت أنني أستطيع أن أفعل ذلك لكن على حساب مسيرتي السياسية، وكانت تكلفة ممكنة، وكنت جاهزًا لدفع الثمن».

تذكر حين كان طفلًا صغيرًا في الفناء، وكان المتسلطون من الأطفال واثقين من «ركلة محتملة على مؤخرته»، لكن ليست هذه المرة، بل في القفقاز، كاد «أن يفتح جهنم على هؤلاء العصابات»[39].